حِبر أبيَض
WHITE INK

محمد الساعد

العثمنة والإسلام السياسي.. تخادم ومشروع واحد!!

يعتقــد العثمانيون الجدد - وهم في تعريفهم المشــهور: كل المؤمنين بفكرة اســتعادة الأتراك لحدود الســلطنة العثمانية جغرافيًّا وسياســيًّا في العالم العربي - أن اســتعادتها لا تمر إلا بالإطاحة بالدول العربية – الحديثة - واحدةً تلو الأخرى، وهم يســتخدمون لإنجاز مشــروعهم حليفهم الأكبر "الإسلام السياســي"، ولا أدل على ذلك مما يحصل في الشمال السوري، وليبيا وشمال العراق، ومحاولات الغزو الثقافي عبر وسائل عديدة.

الغريــب أن المطالبــات العثمانية الجديدة لا تشــمل الجغرافيا الأوروبيــة، ولا الجغرافيا الروســية، وهي الدول أو الأراضي التي اســتعادتها أوروبا وروســيا من العثمانيين، بل ينصبُّ غضب وأحلام الأتراك الجدد على الأراضي العربية التي اســتقلَّت واســتعادت حريتها بــدءًا من العام 1914م، ولذلك نرى أن معظم الفتن والمحاولات للتفتيت والزعزعة لا تستهدف إلا البلدان العربية.

لقد اجتمع العثمانيون الجدد مع التنظيمات الإسلاموية، وخاصة "الإخوان المسلمين" على فكرة رومانســية، وهي إعادة بناء "الخلافة العثمانية"، التي كانت شكلًا من أشكال السيطرة العثمانية على العرب، لكنهم في حلمهم لحكم العالم الإســلامي يَغُضُّون النظر عن حقيقة أن الذي قضى عليها – الخلافة- هم الأتراك أنفسهم وليس أحد آخر.

القضاء على الخلافة الإســلامية كأحد أشــكال الحكم المقبولة إسلاميًّا جاء إثر سرقتها من العرب، واختطاف آخر الخلفاء العباســيين من القاهرة ســنة 1517م، وجلبه إلى إســطنبول، ومن ثم التخلص منه، والزعم بتنازله عن منصبه، ومن ثم إعلان أنفسهم خلفاء.

أما الخلافة في شــكلها العثماني المسروق فقد أكلت الســلطنة نفسها من الداخل، بعد قيــام الضباط الأتراك بحركات تمرد وتحرُّر من الماضوية التركية العثمانية ســعيًا لبناء دولة حديثة، وهي انشقاقات بدأت مبكرًا منذ العام 1870م، واستمرَّت حتى الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني، وبغض النظر عن أهداف الضباط، لكنهم أتراك أســقطوا ســلطنتهم التركية بأنفسهم بدون تدخل مباشر من العرب.

لقد وجد الإسلام السياســي في العالم العربي - نتيجة لخصومته مع الأنظمة العربية على وجه الخصوص، وســعيه للانقلاب عليها - في الخلافة "قميص عثمان"، وفي الأتراك حليفًا وظهيرًا له في مشــروعه، وفي سبيل تحقيق مشروعهما المشــترك، يقوم الإسلام السياسي بجانبه من القصة، وهي بناء ســردية غير حقيقية عن "الأمجاد والحكم الرشــيد العثماني" فــي العالم العربي، وتحميل العرب المســئولية، ليستمر الإحساس بالذنب، ومحاولة الغفران بدعم عودة الخلافة المزعومة، بينما تقول الوقائع والتاريخ الدموي للعثمانيين غير ذلــك، لقد كان العثمانيون قوة محتلَّة متجبرة، همُّها أخذ الخيرات العربية - موقعًا ومَوارِدَ وطاقات بشرية - وتصديرها للسلطنة.

وتلعب الدراما والأبحاث والكتب والمنصات الإعلامية دورًا خطيرًا في ترويج تلك الســردية غير الحقيقية، وينشــط الإســلاميون المؤمنون بالعثمنة في ترســيخها في الوجدان العربي، ويقوم الأتراك أنفســهم بكتابة تاريخ آخر غير تاريخهم الحقيقي لتلميعه، ومسح كوارث الدماء والقسوة منه، وتحويله إلى تاريخ أكثر قبولًا عند الشــعوب، ولا أقرب من تاريخ الســلطان عبــد الحميد مع هيرتزل مؤسِّــس الحركة الصهيونية، وهو الذي تحصل على الوســام المجيدي من السلطان نظير خدماته للســلطنة، ومع ذلك يتم تغيير الرواية ويُصدِّقها العامة وكأنها خدمة لفلســطين، بينما الواقع كان غير ذلك تمامًا.

وجد المشروع التركي الجديد في بعض الإسلاميين العرب، والتنظيمات المنتجة لهم، أذرعًا وإمكانات قادرة على خدمة مشروعه، ولذلك فتح لهم أبواب تركيا؛ للقيام بدورهم التخديري في العالم العربي، ويتضمَّن تشــويه الواقع العربي، وتعظيم مآسيه، وتشــويه منجَزاته، والوقيعة بين الشعوب والحكومــات، وتحويل الولاء مــن الأرض العربية للحلم العثماني، وتصوير تركيــا كبلد صانع للأحلام، والأتراك الجدد ومشروع "العثمنة" كمنقِذَين.

لقد كان اســتخدام نتائج ما يسمى بالربيع العربي تتويجًا لذلك التخادم المُرِيب الذي رتَّب له الطرفان – التركي، والإســلاموي- طوال عقود، فقد استطاع الإسلاميون هَدم بعض الدول العربية من الداخل، مســتغلين حالة الفوضى والاحتجاجات نتيجة لحملات التشــويه والاختراق لسنوات طويلة، وســهَّلوا للأتراك التقدم جنوبًا نحو ســوريا وتونس وليبيا، ومع أن تونس ومصر استعادَتَا بعضًا من عافيتهما إلا أن المشروع العثماني لا يزال قائمًا، وإن سكن قليلًا.